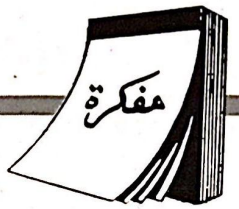

يكتبها : "راء"

مفكرة

يوميّات طفلة فلسطينية فقدت في الحرب ضفيرتي الفاحمة السواد !

■ ١٦ ايلول ١٩٧١ :

لا ادري ، اذا ما كان سيصدق العالم انني ابنة عامي السابع ، ويقين اني في نظر الناس والمؤرخين وباحثي علم الاجتماع لم اتخط ما اعتادوا على معرفته بسن الطفولة ، بمعنى ان مؤرخة هذه اليوميات، لا تعد في نظر العالم الميتافيزيقي سوى وهم او اسطورة او نبوغ انبيائي ، واني لاشاطر هذا العالم رأيه ، لو لم اكن قد القت بي امي ، وهي امرأة بائسة محطمة قتل زوجها ، اعني ابي ، قبل بضعة اعوام فوق سطح هذا الكوكب المشتعل ، ولو انني لم اتنفس لاول وهلة دخان الحرب ، ولو لم تعود اذناي على ضجيج جنازير الدبابات وهي تزحف ارتالا كثعبان مرقط ضخم اذهله احتراق الغابة .

واذا كان بوسع انسان ما .. حقيقي ، له كالاخرين حد معين من الحدس والذكاء ورؤية الاشياء بنسبها وحجومها الطبيعية، بمعنى انها تنعكس في حواسه لتتحدد . مفاهيمها وقيمها ، اذا كان بوسع انسان اعتيادي ، هكذا ، ان يتحول لا بضربة عصا موسى السحرية ، ولا بصدفة قدرية خارقة الى شيء ما .. يشبه الاسطورة او الوهم، فلقد كان علي وانا ابنة جيل سحقته حربان والتمعت عيناها هي خوفا ودهشة في حرب ثالثة ، وحرب جديدة من طراز اخر .

كان علي ان اكون تلك الاسطورة الحقيقية، وما اكثر الاساطير التي تصنع في مختبر الحياة الواقعية ، في معترك النضال الانساني المرير ، في قلب عاصفة التحولات الاجتماعية . معذرة اذا ما بدا حديثي للوهلة الاولى ، وكانه اشبه بالمفاخرة وابراز الذات الغارق في التفاهة . فانا احدثكم لا عن اسطورة ابنة العام السابع هذه ، وانما عن اسطورة هذه الكتلة البشرية المعذبة التي ربما لم يصلكم من اخبارها ـ وهذا هو عين الحقيقة ـ سوى ما لصق زورا وبهتانا من وسامات وانجم مذهبة على صدور واكتاف رجال جل صنيعهم هو انهم لم يفعلوا اكثر من ترك راياتهم تحترق تحت اقدام الغزاة الفاتحين .

■ ١٧ ايلول :

اشتعل ضوء الفجر عنيفا حادا ،متفتتا بقوة واندفاع على سفوح جبال عمان السبع وكانه اراد بذلك ، ان يعلن بداية شيء ما ، عظيم ، ضخم .. كاندلاع حرب مثلا ، لا تشبه سائر الحروب التي تدور بين خصمين يقفان على نقطتين متقابلتين ، يقفان وجها لوجه ، كحرب الـ ٥٦ او الـ ٦٧ ، او الحرب العالمية الثانية مثلا . كل سطوح العمارات والابنية ذات الطوابق المتعددة ، المغلقة النوافذ ، ومفارق الطرق الفرعية والعامة ، وكذلك شرفات المنازل الصغيرة وخلفيات المداخن العالية ، كل ذلك يبدو من على مسافة بعيدة ، شبه هادىء وطبيعي ساكن ، كانه تحول الى مقبرة ضخمة قديمة ، وكان شيئا سوف لن يحدث بعد قليل ، بينما كان رجال ملثمون ، طوال وقصار القامات يروحون ويجيئون ، مدججين باسلحة مختلفة بعضها عتيقة صدئة، واخرى لما تزل حتى تلك اللحظة عالقة فيها اوراق واشحمة ، فقد فتحت صناديقها توا .. وثمة قرقعة قناني فارغة تسكب فيها سوائل نارية متفاوتة الكثافة ، وتحكم سداداتها بخرق قديمة تتخللها بثقة ، اعواد صغيرة ذات رؤوس كبريتية ، انها المولوتوف ، هذا السلاح المتراسي الجماهيري .

ويسود صمت متوحش ضار جو المدينة التي قال عنها رجال الصحافة والاذاعات وقتها ، وحتى اناس عاديون كثيرون ، انها روما التي تركها نيرون تحترق ، غضبا وانتقاما ، وكانما استجانت الالهة القديمة لدعاء انانو بشتم ، فانزلت الطوفان بالمدينة التي تقاتل فيها حتى الهلاك اوفى صديقين ـ جلجامش ، انيكدو ـ . ومع كل ما عرف عن النظام من بطش وهمجية وظمأ للدم فان احدا من ابناء مخيمنا البسطاء ، المتلثين طيبة ، لم يكن يدور بخلده حتى تلك اللحظات السريعة ، ان تتساقط قذائف الموت المهدمة المحرقة، كما لو انقضت زوبعة ثلجية على جزيرة مسالمة تنام وسط البحر . وتناقلت صحف واذاعات العالم انباء الهجوم النازي على مدينتنا التي كانت تحترق . وانتشر الظمأ والجوع كأخطبوط ، بينما كان ينشط رجال ، لا ادري ان كانوا قد تحولوا تلك اللحظة ، الى مقابض من الفولاذ ، كانوا يجمعون الجثث المترامية على ارصفة الطرق ، وتحت انقاض البيوت المهدمة في حفر كبيرة ، كانت تستخدم فيما مضى ، لرمي الانقاض ، ولكن بدو انها كانت مفيدة لشيء غير ذلك .

■ ١٨ ايلول :

بينما كانت تتجه انظار العالم كلها الى ذلك الخطر المحدق بنا كان الناس في مدينتنا يتراكضون في كل الجهات ، على غير ما هدى ، اطفال مضطربون يحملون شراشير الرصاص ، وامهات يحملن الاغذية وخصوصا ارغفة الخبز الحارة ، وبعض الاغطية ، وادوات للاسعاف الاولي ، كمائن تندحر ، ودوريات ليلية تهاجم الدبابات وتنقض عليها كشبح مفترس . الرجال الملثمون وهم يقاتلون ، كانوا لا يقاتلون وحسب اسوأ وابغض نظام رجعي في منطقتنا ، كانوا ايضا يثبتون للعالم اجمعه ، ان وراء هذه البطولة والصمود الاسطوري ، لا تقف ارادة ذاتية ، او حماس كتل من الثوريين او توجيه شلة من القادة النائمين في الخطوط الخلفية .. انها الصرخة الحقيقية التي اطلقها شعبنا ، مثل صاعقة في ليلة شتائية ساكنة مترقبة . ونحن الفلسطينيين ـ وهذا ضروري ان يقال الان ـ صرنا نعتبر السياسة ليست اهم شيء في حياتنا وحسب ، بل ان لا وجود لنا بغيرها ، فهي قوتنا اليومي ، ونحن نحسها ونعيشها كل لحظة وعند كل خطوة نخطوها في هذا الطريق المتعرج الطويل . وهي موسيقى حقيقية تتحرك في اعماقنا نجدها امامنا وملء حواسنا ، في الحلم واليقظة .. في الظلمة والضوء .. حتى في الهواء الذي نتنفسه، اي بمعنى اوضح ، انها موجودة في وسطنا الاجتماعي . وهذا الشيء لا ينطبق علينا وحسب ، بل على كل شعوب العالم التي لها قضية مثلنا .. ونحن الفلسطينيين ، ومعذرة لهذه الـ (نحن) ، صرنا وقتها ، اعني وقت المعركة، نرى كل الاشياء ونفسرها على اساس واحد ـ من ليس معنا ضدنا ..

■ ٢٣ ايلول :

ليصدقني العالم اذا ما قلت اننا كنا وحدنا! وحسب نخوض تلك الحرب الضارية مع الجيش الملكي الغازي ، لا ادري كيف تمالكت نفسها تلك الدبابات اذ تحولت الى كتل خرساء وسط لهيب المعركة ، في وقت كان بوسع صخرة صماء ان تتفجر غيضا ، او انها تبكي، في اضعف الايمان .. كل ما املنا به الاخرون تحول ليس الى حبر على ورق ، بل الى ورق شفاف نطاير في دخان المعركة ، كانه اراد بذلك ان يهزأ بنا ... واخرون عقدوا اجتماع ملوك ورؤساء ليلقوا لنا من بينهم برجل بارد ثقيل الظل ، ان لم نقل انه شكل اجمل ما في اللعبة الكاريكاتورية منهزء واستصغار لنا . لقد كان رجلهم البارد ذلك ، اعني منقذنا اذا جاز التعبير ، ثعبانا رجعيا اخر ، لكنه يحمل وثيقة سفر تونسية هذه المرة ، وصدق من قال (عصفور كفل زرزور واثنينهم طيارة) .

■ ٢٨ ايلول :

كفت دبابات ومدافع الفاشست عن دك مدننا ومخيماتنا ، بعد ان انتزعت من ايادينا ما امكنها انتزاعه .. سقط مخيمنا ومخيمات اخرى .. وسقط نصف عمان في ايدي رجال بدو مسلحين ملثمي الوجوه اعتادوا على الغزو والنهب ، واذكر انهم بعد ان فتشوا بيتنا ، وكسروا كوز الماء ، وقلبوا الملابس والاغطية على الارض ، التهموا شيئا من الزيتون ، وسرقوا قرط اختي الكبرى ، ومثل كلاب الصيد المتوحشة عضوا باسنانهم النجمة الخماسية المعلقة على الحائط والتي كان يعتز بها اخي كثيرا ، ولطالما كان يحدثنا عنها ، وعما لها من قدسية في قلبه، وفي قلوب سائر الرجال الذين يقاتلون في سبيل الخبز والحرية على سطح هذا الكوكب . وكان وقتها يقاتل في مكان اخر على سفوح جبال عجلون الخضراء ، لقد ارادوا اذاك ان يحضوا به على ما اعتقد .

لم يحدث بعد هذا التاريخ شيء استاثر باهتمامي ، فلقد دبت البرودة في الجو السياسي بعد ان وصلت ذروتها في درجة الغليان الدموي عشية اندلاع حرب ايلول . سوى ان حادثا كان يمكن ان يدرج في قائمة الاشياء العادية والمالوفة لو حدث قبل ذلك الاوان فقد سمعت من اذاعات الاخرين ، الذين لا تتحدث عنا اذاعاتهم تلك ، الا في امور صغيرة تافهة ، وبعد ان يكون قد صفي الحساب تماما مع قضية ما ، سمعت ان شيئا ما كان يكون (مصالحة او اتفاق) قد جرى بين قياداتنا المتاكلة كشجرة من اسفل جذعها ، وبين حراب الغزاة الملكيين، والتي بقيت مشرعة حتى ابعد ما عرف بالصلح .

وقتها ، حين كانت العاصفة تزمجر ، والليل طول .. ثقيل مثل جبل يغرق في صمت مطبق ، يتدثر بجلد القرون المتحدرة من الماضي البعيد ، لم يكن احد منا يدري على وجه الدقة ، ما اذا كان قد فقد شيئا عزيزا ، ام انه خرج بكل حاساته واجزائه الاخرى تماما مثلما دخل ساعة الحرب الاولى ، فاذا كانت جارتنا الضعيفة البنية الصارمة الوجه ، لم تخرج من المعركة بغير ولدها الصغير ، تاركة امر ابيه واخوته الاربعة الاخرين تقرره قذيفة مجرمة ضالة دكت غرفة النوم الصغيرة البسيطة الاثاث على غير ما انتظار ، وحينما كنا نواسيها ، كانت (تعزينا !!) بان ابناء الثورة (هكذا عرف الناس الذين يعملون لتغيير واقع اجتماعي قديم او يسعون لهدف تحرري وطني) ، انهم ما زالوا وان بهم عزاءها الوحيد ، لا ادري اذا ما كان ضروريا الان ، وبعد ان نال منا الاعداء الرجعيون ما نالوا ، ان اذكر ان ضفيرتي المتهدلة الفاحمة السواد ، التي كنت اكثر ما اعتني بتصفيفها قد ذهبت بها شظية ظالمة ، حينما كنت صاعدة السلم ، احمل بعض (الزاد) لكمين كان قد اتخذ سطح دارنا موقعا ليليا له .. الحق انني قد لاحظت ذلك بعد مرور ساعات من الحادث، ولم اشعر باسف بالغ وقتها ، فقد كانت لما تزل تحترق المدينة ، وتزحف في طرقاتها ثعابين الحرب الجائعة .

يقينا ان رايتنا قد انتكست لاكثر من سبب .. ولكنها لما تزل في ايدينا .. وهذا هو جوهر المسالة .

راء ـ البكري ـ العراق

لحظة !

« .. ولقد عجل قدوم لينين (نيسان ١٩٧١) بتطور الامور ، وساعد تأثيره الشخصي على تقصير مدة الازمة ، فهل يمكننا ان نقول بكل تاكيد انه كان بوسع الحزب ان يجد سبيله بلا لينين ؟ اننا لا نستطيع تقديم مثل هذا التاكيد ابدا والوقت هنا عامل حاسم ، ويتعذر النظر الى ساعة التاريخ بعد وقوع الاحداث .. ولو لم يكن لينين موجودا لاخذت الازمة الناجمة عن تصرفات القيادة الانتهازية شكلا اكثر حدة واشد طولا ، بيد ان ظروف الحرب والثورة كانت تضغط على الحزب ، ولا تترك له فترة طويلة ينفذ فيها مهمته ، ولـذا فقد كان من المحتمل ان يخسر الحزب التائه المنقسم الوضع الثوري ، ويفقد الفرصة الملائمة خلال عدة سنوات ، وهكذا يبدو لنا دور العامل الشخصي بحجم ضخم الى حد بعيد .. »

تروتسكي

من « تاريخ الثورة الروسية »